

الإبداع قبل التنزيل

د. عبدالحليم عويس

من أعقد العمليات النفسية والفكرية عملية تكوين الشعور والوجدان، بحيث تتفاعل عناصر الحب والإيمان واليقين مع كل خلايا الإحساس البشري، تماماً كما يتحول الطعام إلى طاقة، يتفاعل بها ومعها كل الجسد البشري، ويصبح مستحيلاً الفصل بين هذه الطاقة التي تداخلت مع الخلايا وأصبحت جزءاً من الكيان تعبر عنه بطريقة عفوية تلقائية !!

علاقة الصحابة بالإسلام علاقة حب وعشق، وبحيث أصبحت علاقتهم به - ﷺ - علاقة حب، وليست مجرد إيمان عقلي وسلوكي، كما أن الصلاة لم تكن هي تلك الحركات التي نؤديها في عصرنا الحديث بطريقة خالية في كثير من الأحيان من الإخلاص الوجداني، ومن الشعور بأننا في حالة اتصال ومناجاة لخالق السماوات والأرض.

إننا ندرك أن تكوين الإحساس عمل أكثر تعقيداً، نتصور، إنه ليس محصلة بعض الأغذية البدنية أو الثقافية أو الوجدانية وحسب؛ بل هو امتزاج لكثير من العناصر المتداخلة التي تتصل بأعماق الفطرة نفسها؛ وبالتوجه النفسي والفكري بالدرجة الثانية.

والحقيقة الإسلامية عندما تستقر في الشعور تجعل رجلاً مثل محمد إقبال يترجم في أدبه عن أبعاد هذه الحقيقة، دون أن يكون قاصداً ذلك أو واعياً به، أو هادفاً إليه...، إنه

وفي يقيني أن من أهم ما ينبغي أن تقوم به الدعوات الصالحة هي أن تعتمد إلى تكوين هذا الوجدان، ومزج العناصر الإيمانية به بحيث تتفاعل معه وتصبح تعبيراً تلقائياً عنه.

إن التربية القانونية والظاهرية والفكرية قد تكون صالحة لغرس الالتزام ببعض السلوكيات، ولتعويد الاجتناب للمحظورات القانونية، لكنها لا يمكن أن تنشئ التفاعل الشعوري القائم على الحب والاندماج والذوبان، وقد تكفى لمنح صاحبها شهادة من الشهادات، أو مناصباً من المناصب، لكنها لا تكفي لكي تشعل مصباح القلب الذي قال الله فيه في حديثه القدسي: «ما وسعتني أرضي ولا سمائي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن».

إنني أتصور أن الرسول - ﷺ - بذل جهوداً كبيرة في سبيل الوصول إلى فتح أقفال القلوب؛ بحيث أصبحت

✽ كاتب مصري معروف، حاصل على الدكتوراه في الدراسات الإسلامية من جامعة القاهرة، له من المؤلفات والدراسات ما يصل إلى الخمسين.

كذلك الأمر في علم النفس التحليلي أو التطبيقي الاجتماعي . . . فبغير العلاج النفسي الذي يأخذ بالمفهوم الإسلامي للنفس ، ويؤمن بالطبيعة الفردية والمتميزة للإنسان بعيداً عن المستوى الذي وضعه فيه (سيجموند فرويد) وغير من الماديين والطبيين والحيوانيين .

ولا نستطرد في ذكر أهمية الجوانب التطبيقية والإبداعية والميدانية بالنسبة لبقية العلوم الإنسانية كالتربية والأخلاق . . . فالحق أنه بدون هذا الإبداع التطبيقي سوف تدور العلوم الإنسانية ومنها الأدب بأجناسه المختلفة في فلك محدود جداً ، بل ومكرور جداً ، ولن تستطيع حداثتها أن تقدم زهوراً جديدة ، بل ربما بعد فترة من الزمان يبدو الأمر مجرد تعصب لا رصيد له ، ومجرد انتماء عاجز لعقيدة عجز أصحابها عن التعبير الفني عنها .

والى هذا النوع من العجز ينبهنا «الدبلوماسي» الألماني المسلم (مراد هوفمان) قائلاً لهؤلاء الذين ينادون بجعل العلوم الإنسانية إسلامية . . . ينبهنا (هوفمان) إلى أن هذا الاتجاه - «دون رصيد إبداعي يفرض نفسه على المجتمع» يشكل نوعاً من السذاجة البلهاء ، لن يؤدي إلى الإصلاح المنشود ، فلا يمكن أن تصير العلوم إسلامية إلا إذا برزت على الصعيد العلمي إنجازات رفيعة المستوى للعلماء المسلمين ، الذين يؤمنون بالإسلام ويطبقونه في أقوالهم وأفعالهم ، وإلا إذا قدر المجتمع هؤلاء العلماء حق قدرهم موفراً لهم أسباب الكرامة ، ناظراً إلى أن تفوقهم وتبريزهم إنما هو نتيجة التربية الإسلامية ، وتنفس هواء البيئة العلمية الإسلامية (هوفمان - الإسلام كبديل - ط ١ - ٧٨ نشر مؤسسة بافاريا بميونخ بألمانيا) .

إنني عندما أقرأ ما كتبه مصطفى صادق الرافعي في (وحي القلم) وفي (المعركة تحت راية القرآن) وأتذكر أن نصيب الرافعي من الشهادات العلمية لا يعدو الابتدائي

التعبير العفوي عن الوجدان الذي تشكل إسلامياً ، وامتلك القدرة على التعبير ، وترجم الإسلام إبداعاً بطريقة عفوية تلقائية . . . ، وربما لم يفكر واحد من المبدعين الإسلاميين أن يكونوا منظرين لجنس من أجناس الأدب ، ولا أن يفكروا في إيجاد التناغم والتنسيق بين هذا الجنس الأدبي وبين الرؤية الإسلامية للكون والإنسان والحياة ولعلاقة الإنسان بالخالق العظيم ، ولرسالة الإنسان المسلم نحو الحق والخير والجمال . . . ، ربما لم يفكروا في شيء من ذلك ، لكنهم مع ذلك قدموا إبداعاً يرشح بالرؤية الكونية والقيمية !!

وأنا أعرف كثيراً من دارسي الأدب في الجامعات العربية والإسلامية كانوا يدرسون أجناس الأدب وأصول النقد عمق شديد ، وربما قدموا نماذج تطبيقية في دراساتهم من عمال الآخرين ، وربما كانت لهم اهتماماتهم أيضاً عن لحقائق الإسلامية . . . لكنهم مع كل ذلك لم يستطيعوا أن يفرزوا لنا عملاً إبداعياً فنياً يرشح بالرؤية الإسلامية !!

وهذا كله يدفعنا إلى أن نقول : إن التحدي الذي يواجه المهتمين بالأدب الإسلامي ليس في مستوى التنظير ، فذلك أمر قد تنجح فيه بعض الأطروحات العلمية ، وإنما يتجه تحدي إلى مستوى الأعمال الإبداعية التطبيقية بالأقصوصة أو القصة أو الرواية أو المسرحية أو القصيدة الشعرية .

وهذا الذي يواجهه الأدب الإسلامي هو ما يواجهه كل جوانب (التأصيل الإسلامي للعلوم الإنسانية) فلن يكون هناك علم اجتماع إنساني بالتنظير فقط ، بل بالخدمة الاجتماعية التطبيقية الإسلامية ، وبالبحوث الميدانية التطبيقية ذات المنظور الإسلامي ، وبالتشريع الاجتماعي عناصر المجتمع بالمنظور الإسلامي ، الذي يعطي للدين حقه في قيادة المجتمع ، وليس في مجرد المواءمة مع الظواهر الاجتماعية ، أو ما يسمى بالتكيف معها .

القديمة - يزداد إيماني بضرورة التركيز على بناء الوجدان المسلم ، ويزداد يقيني بأن صناعة هذا الوجدان ستكون من أكبر الروافد التي تعين الأديب المسلم على الإبداع .

إن مصطفى صادق الرافعي - كنموذج - لم يكن يملك (نظرية أدبية إسلامية) بل ربما لم يفكر إلا قليلا في عملية التنظير ، ولكنه استطاع أن يبدع أيما إبداع ، وأن يعالج كل القضايا بوجدان المسلم ، وب عقل المؤمن ، فليس في الإسلام انشطار بين القلب والعقل ، فكلاهما يفقه وكلاهما يبصر ، وكلاهما يقود صاحبه إلى التعبير الإيماني والسلوك الإيماني .
إننا في حاجة إلى العودة إلى نقطة البداية هذه ، وهي كفيلة - مع الدراسة والثقافة من خلال القلب العاشق لله والوجدان الزاخر بالحب للإسلام - أن نفرز لنا أدبا راقيا يفرض نفسه على الناس .

ولكن لأننا أهملنا نقطة الانطلاق ولم نقف عندها كما ينبغي فإننا قدمنا أدبا تقريريا مباشرا ، ومقالات إعلامية صاخبة ، وخطبا رنانة ، لكننا لم نستطع أن نقدم إبداعا يخرج من قلوبنا ليصل إلى قلوب الناس ، وذلك باستثناء بعض الأدباء الذين يمثلون الشذوذ الذي لا يخل بالقاعدة .

ومن العجيب الذي يحتاج إلى بحث وتمحيص أن كثيرا من الإيديولوجيات - فضلا عن التجربة اليهودية - قد وجدت من يحبها ويتعاطف معها ﴿ وكذلك زينا لكل أمة عملهم ﴾ على مافي هذه الإيديولوجيات من باطل وزيف وأنانية ، فلقد وجدت الشيوعية - مثلا - بعض من يترجمون أفكارها بحجة الدفاع عن المستضعفين ، وعطفا على طبقة البروليتاريا ، ونزوعا إلى وهم المساواة الكاملة بين الذكي والغبي ، والعالم والجاهل ؛ ولا غرو فالوهم الإنساني له دور في الإبداع حتى ولو كان وهما أقرب إلى المستحيل !!

وقد قدم الفكر المادي أعمالا إبداعية كثيرة مثلت

الإرهاصات - أحيانا - والمؤكيدات - أحيانا - للشورات الاشتراكية الشيوعية ، وبعضهم يعتبر أعمال الكاتب الروسي العالمي «ليوتو لستوى» من أبرز الأعمال التي ساعدت على إنضاج الأدب الاشتراكي ، ومع إمكانية تحقق شيء من هذا فإننا نبرئ «تولستوى» من المضمون الإلحادي اللاديني الذي دخل في بنية الفكر الاشتراكي .

وفي عالمنا العربي اعتبرت رواية عبد الرحمن الشرفاوي (الأرض) من بواكير الأعمال الممهدة للفكر الاشتراكي العربي . . . كما أن روايات وقصص عبد الرحمن الخميسي مثلت التمهيد للأدب الشيوعي العربي .

وقد نجح أصحاب الإيديولوجية القومية في عالمنا العربي في تقديم أعمال فنية كثيرة ، بينما عجز التيار الإسلامي عن ملاحقتهم لا اعتبارات كثيرة تحتاج إلى تمحيص .

ففي المستوى القومي (الذي يجعل القومية العربية بديلا للإسلام ولا يعدو الإسلام أن يكون رافدا من روافدها أو مرحلة من مراحلها) . . . في مستوى هذا الفكر (القومي العربي) قدم القوميون أعمالا إبداعية كثيرة ، قدمت (المضمون القومي العنصري المادي) من خلال أعمال أدبية . . . حسبنا أن نشير هنا إلى أعمال قليلة منها . . . وذلك لأنها - في الحقيقة - أعمال كثيرة ، وتحتاج إلى حصر ودراسة ، بل وتحتاج إلى نقد بالمنظور الفني الإسلامي ؛ لتعريف القراء بما تتضمنه من أفكار قومية ومادية - (مرحلية) - تجاوزتها (الأمة) بعد أن دفعت ثمنها باهظا لسيطرتها وانتشارها . . . !!

فمن هذه الأعمال الإبداعية القومية روايات (سهيل إدريس) ، (الحي اللاتيني) ، (البئر العميق) ، (أصابعنا التي تحترق) ، ورواية «سلمى الحفار الكزبري» (البريقال المُر) ، وروايات «صنع الله إبراهيم» (تلك الرائحة) و (نجمة أغسطس) ، وروايات «عبد الرحمن منيف» الكثيرة ومنها : (النهايات) ، و (شرق المتوسط) ، و (الأشجار) ، (اغتيال

* * *

والعجيب أنه في هذه الفترات كانت لدى الإسلاميين بواعث كثيرة تجعلهم يلجأون إلى (الأدب) وبخاصة الرواية والقصيدة والقصة ؛ ليضمنوا أعمالهم الفنية صور المحن التي تعرضوا لها ، ولم يكن بإمكانهم الحديث الصريح عنها في بعض البلدان العربية على الأقل - كما أن العقود الماضية حملت صوراً من الضغط العالمي الشرقي أو الغربي الليبرالي تفرض على الضمير المسلم أن يبحث عن ملجأ أدبي يرسل من خلاله الرسائل التي لا يسمح الواقع أن ترسل بطريقة مباشرة وصريحة وتقريرية . . . وباستثناء قلة من بينهم وعلى رأسهم (نجيب الكيلاني) - في مصر - فضلاً عن بعض الأعمال ذات الطابع الحركي المباشر - باستثناء هذه الأعمال ، وأعمال «باكثير» التي لجأت إلى الماضي العظيم تعتصم به . . . لا نكاد نجد أعمالاً تصل في كمها وكيفها إلى المستوى الإبداعي الذي يجب أن يقدم أدبا في مستوى (الأدب الإسلامي) ، الذي يملك تجربة تاريخية فذة ، ويعيش تحديات خطيرة ، ويتعامل مع مساحة واسعة هي الكون كله ، والإنسان - كل الإنسان - ، وتوجهه قيم إنسانية وأخلاقية وجمالية مرنة ، لا تكبل حركته ، ولا تفرض عليه إطاراً خانقاً ، بل تفسح له الطريق ، ليكون رسام الكون ، والحاني على القافلة الإنسانية ، وصاحب المشروع الإنساني الوحيد المتفوق الذي يحفظ للإنسان روحه وقلبه وعقله وكيانه المادي . . . حقيقة . . . إننا يجب أن نعترف بأن المثقفين المسلمين قد أخفقوا في التعبير عن آلامهم التي تفوق عشرات المرات ما كابده اليهود ، فلم ينجحوا في إبداع هذه التجارب فنياً ، وفي تقديم أعمال روائية أو قصصية عالمية تكشف مآسيهم وتقدم للعقل الإنساني وللضمير الإنساني بعض الاضطهاد الذي كابده والذي يصل - كما كان الحال في محاكم التفتيش في الأندلس وفي بعض ما أصاب

عندما كانت النصوص الأدبية رسائل مهمة لا يحتملها الواقع

مزروق) و (سباق المسافات الطويلة) ، و (مدن الملح ، (تيه) ، و (الأخدود) و (تقاسيم الليل والنهار) ، (المنبت) ، روايتا (عبد السلام العجيلي) : قلوب على الأسلاك ، (أنوار الحب الثلاثة . بالاشتراك مع (أنور قصيباتي ، روايات عبد الله العروي : الغربية ، واليتيم ، والغريق ، رواية (عبد المجيد بن جلول) : في الطفولة : «والرائحة دية والتغريبية قوية في الروايات السابقة» !!

ومن هذه الأعمال الإبداعية القومية - أيضاً - روايات (إميل حبيبي) وهي : [الوقائع الغربية في اختفاء سعيد أبو حنبل المتشائل ، وسداسية الأيام الستة ، ولكع بن لكع ، خطية إميل حبيبي] ، وروايات «الطاهر وطار» وهي : زلزال واللاز (ج ١) ، واللاز (ج ٢) ، وعرس بغل ، عشق والموت في الزمن ، والحراشي [والتغريب للماني والمادي - أيضاً - قوي في هذه الأعمال] ورواية (ياس خوري) وهي (الجبل الصغير) وروايات (توفيق عواد) ومنها : [الرغيف ، وطواحين بيروت] وروايات (جبرا إبراهيم جبرا) وهي : [صراع في ليل ، والسفينة] وصيدون في شارع ضيق ، والبحث عن يد مسعود ، والغرف الأخرى [وروايات «حليم بركات» في [ستة أيام ، وعودة الطائر إلى البحر ؛ والرحيل بين موسى والوتر ، وطائر لحوم] . . . وروايات غيرهم من روميين العروبيين المعروفين من أمثال أديب النحوي ، إسماعيل فهد إسماعيل ، وأمين شنار ، وبهاء طاهر ، رفيق فياض ، وجاسم الرصيف ، وحنان الشيخ ، ورشاد شاور ، وغيرهم . . . !!!

أرى أن تتجه المسابقات إلى تشجيع الإبداع الأدبي ليشهد عوده

شريعة وقانون .

وسنجد في تراثنا كثيراً من الأدب الشعري والنثري . . .
في سيرة الرسول - ﷺ - والصحابة والتابعين وتابعي التابعين
ما يغذي الوجدان المسلم وما يحقق فيه الشفافية المطلوبة
والنقاء الضروري والعاطفة الكونية .

ومع تحفظنا على بعض ما جاء في الأدب الوجداني
وأدب الزهد فإننا نستطيع أن نحاكمه إلى كتاب الله ، وسنة
رسوله الصحيحة وأن نأخذ منه ما يساعدنا على تحقيق السمو
والنقاة .

وما زلت أذكر كلمة سماحة أستاذنا الشيخ أبي الحسن
الندوي التي يعزو فيها نجاح المسلمين الهنود في الحفاظ على
هويتهم الإسلامية إلى عامل مهم هو «عاطفة الحب» التي
تربطهم برسول الله - ﷺ - النبي العربي الأمي الذي من أجله
أحبوا العرب أيضاً .

فبالحب واجهوا القهر الهندوسي ، ومن رافدهذه
العاطفة أبدعوا الكثير الذي جعل لغتهم الأوردية تبتدو لغة
حب وإيمان لأنهم ينهلون من منبعي الرحمة والحب .

إننا ندعو إلى أن يتجه التشجيع ، وتتجه المسابقات كلها،
إلى الإبداع . . . حتى ولو كانت به بعض التسوآت فإنه
سوف يستوي يوماً . . . وتختفي الأعشاب الضارة !!

ولسوف تزدهر في النهاية حديقة الأدب الإسلامي
بالثمار الرائعة التي تسمو بالفن وبالوجدان والإنسان . .
ومن خلالها يكون التنظير . .

المسلمين الهنود على يد الإنجليز والهندوس وفيما يصيب
المسلمين الآن في البوسنة والهرسك على يد الصرب .

إنها صور من العذاب والاضطهاد والتنكيل ترتكس
بالإنسانية إلى مستنقع آسن لا تهبط إليه الحيوانات في
الغابات !!

ومع ذلك كله عجز المسلمون عن تقديم أعمال إبداعية
تقلق المثقفين الإنسانيين ، وتحرك المحايدين المستعدين للدفاع
عن الحق والخير !!

إن أسباب هذا العجز تحتاج إلى دراسة مستفيضة ، لكنني
أرى أن من أهم الأسباب أن المسلمين يعالجون الأمور بطريقة
مباشرة وظاهرية ، ويركزون على الصرخات الإعلامية ،
والاحتجاجات الرسمية وقلما يفكرون في ضرورة الرجوع
إلى الله وإلى الوجدان ليعيدوا إلينا ذكرى تلك اللحظة التي
عانى فيها الرسول - ﷺ - ما عانى وشعر فيها شعوراً عميقاً
بمدى طغيان الباطل وضعف الحق في هذه الدنيا . . . ومع
ذلك فلم يفكر في الأسباب الظاهرية - مع أننا لا نقلل من
شأنها - وإنما اتجه إلى خط الدفاع الإيماني الأول فرفع يديه
وخاطب ربه بكل كيانه وشعوره قائلاً : اللهم إليك أشكو
ضعف قوتي وقلة حيلتي ، وهواني على الناس يا أرحم
الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلمي
. . . إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمرى . . إن لم
يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ولكن عافيتك أوسع لي . . .
وبعد ذلك ، بل من خلال ذلك بدأ الرسول الكريم عليه
السلام يأخذ بالأسباب .

* * *

إننا ندعو إلى الاهتمام بالوجدان وإلى اعتباره رافداً
أساسياً من روافد الأدب الإسلامي على أساس أن علاقة
الإنسان المسلم بالله هي علاقة حب قبل أن تكون علاقة